

الخميس 25-10-2007

25- قراءة في "أحلام فترة النقاهة" (3)

الحلم 3

هذا سطح سفينة يتوسطه عامود مقيد به رجل يلتف حوله
حبل من أعلى صدره حتى أسفل ساقيه وهو يحرك رأسه بعنف
يمنة ويسرة ويهتف من أعماقه الجريحة
متى ينتهي هذا العذاب؟
وكان ثلاثتنا ينظرون إليه بإشفاق ويتبادلون النظر في
ذهول

وتساءل صوت:

من فعل بك ذلك؟

فأجاب الرجل المعذب ورأسه لا يكف عن الحركة
أنا الفاعل

لماذا؟

هو العقاب الذى أستحقه

عن أى ذنب؟

فصاح بغضب:

الجهل

فقلت له:

عهدنا بك ذو حلم وخبرة

جهلنا أن الغضب استعداد فى كل فرد

وارتفع صوته وهو يقول:

وجهلنا أن أى إنسان لا يمكن أن يخلو من كرامة مهما يهون
شأنه

وعَلَبْنَا الحزن والصمت.

القراءة (النقد)

نبدا من الآخر:

(1) " الغضب استعداد فى كل فرد"،

(2) أى إنسان لا يمكن أن يخلو من كرامة مهما يكن شأنه".

يبدو أن هذه البديهيات التى نتصور أنه لا جدال حولها،
خاصة ونحن نردها ليل نهار، ونتصور أننا بمجرد أن ننطقها
قد حققناها، يبدو أن حلم محفوظ هنا ينبهنا إلى احتمال
أننا فى حقيقة الأمر - ننساها- حتى لو ظللنا نردها دون أن
نختبر عمق وحقيقة ممارستها بتسطيح أو تزييف أو كذب.

أما أن الغضب استعداد في كل فرد، فقد شغلني هذه المسألة طويلا حتى صغتها حديثا (2007) في شكلها الأبسط في صورة أغنية للأطفال "داخلنا وخارجنا"، أكتفى بالإشارة إلى موقعها في الموقع "الحق في الغضب" مقالات الدستور 2007/7/25

ثم إنني شُغِلت قبل ذلك (1980) بما وراء هذا الغضب الإيجابي، حين رحلت أودع عن الوجه الإيجابي لغريزة العدوان التي عادة ما ننكر دورها الإيجابي خوفا من حضورها التحطيمي السلي الأشهر، كانت أطروحتي عن "العدوان والإبداع" من أول ما نظرت في مسألة الغرائز، وأكتفى أيضا بالإشارة إلى موقعها في الموقع "العدوان والإبداع" مجلة الإنسان والتطور يوليو 1980.

الجهل ذنب خطير:

حين ننكر هذا الحق (حق الغضب) جهلاً أو تجاهلاً، وبتنكر- ضمنا- لإيجابيات هذه الغريزة (العدوان)، فنحن نخذل طبيعتنا البشرية فنستحق العقاب، أقسى العقاب، وهذا هو ما بلغني مما يمثله هذا الرجل المقيد نفسه على عمود السفينة؟

هذا هو الجهل الأول.

الجهل الثاني (الذي يبدو أيضا أنه تجاهل، فإنكار)، هو أن نخص الكرامة (التي أكرم الله بها كل خلقه)، بغثة دون أخرى، وسواء فهمنا كيف أن الكرامة نابعة أساسا من أن الله "كرم الإنسان"، من حيث هو إنسان، أو فهمناها بذاتها لذاتها بمعنى العزة والحرية والإياء، فإن جهلنا بها أو تخصيصها لفئة من البشر دون أخرى يترتب عليه ذنب آخر يستحق نفس العقاب، أو مضاعفته، وهو ما جاء في هذا الحلم وأعلن بعد صدمة إفاقة.

الذي يجهل (يتجاهل / يُنكر) حق الغضب (مع أنه استعداد في كل فرد)، كما يجهل (يتجاهل/ينكر) أن أي إنسان لا يمكن أن يخلو من كرامة، لابد أن يدفع الثمن؟

وهو نفسه الذي يصدر الحكم على نفسه (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا).

لكن: كيف يكون الجهل جريمة تستحق العقاب؟. أي ذنب اقترفه هذا الجاهل؟

كثيرا ما أكرر مثل ذلك على طلبتي حين أجد أن شركات الدواء قد أغلقت عقولهم إلا على ما يخدم أموالها، في حين يلقى المرضى في وعينا من "المعرفة والمعاني" ما يعيننا على مساعدتهم ورؤية أنفسنا وإياهم، لكنني أجد مقاومة شديدة من طلبتي وزملائي لفهم أبسط هذه الرسائل، فأقول لهم: "إن الله سبحانه على ما نعلم، وعلى ما رفضنا أن نعلمه، أو نتجنبنا أن نعلمه، ولو لاشعوريا، ما دامت قد أتاحت لنا فرصة تعلمه، معرفته، إدراكه.

العقاب:

طيب ما هو العقاب الذى نلحقه بأنفسنا إذا ما أذنبنا في حق أنفسنا فعشنا أنقص مما خلقنا الله، بمعنى أذن، وأقل، وأكثر تشويها؟

نقرأ الخلم

مسرح الخلم هو سطح سفينه، هل هي مقابل سفينة نوح؟ "صدمة الإفاقة" التى يحملها لنا الخلم، تحملها ونحن نركب الفلك لعلها تنقذنا من الاغتراب التخديرى الذى وصلنا إليه على مستوى العالم؟.

بالصدفة البحتة بعد أن كتبت المسودة الأولى لنقد هذا الخلم وصلنى من زائرة (قارئة) كريمة تعليقا على "يومية حالات وأحوال": "أدمغة المدمن ومستويات الوعي" (10/23)، معلومة جعلتني أعيد تحديث نقد الخلم. (انظر حوار الغد في هذه اليومية)

تقول هذه المعلومة "... طلب "هوشى منة" قائد الثورة الفيتنامية من رفاقة أن يربطه بسارى مركب، ولا يفكوه مهما تأثروا بصراخه، حتى يتسنى له الكف عن تعاطى الأفيون". هزنى هذه المعلومة وأنا أربطها بجدس نجيب محفوظ الإبداعى برغم عكس الرسالة، ذلك أن "هوشى منة" يربط نفسه ليفيق من المخدر، في حين أن رجلنا هنا يربط نفسه عقابا على أنه استسلم لتخدير الاختزال والاغتراب وتشويه الفطرة.

ما وصلنى من تشكيل هذا الخلم أن نجيب محفوظ يبلغنا بهذا الخلم أنه:

مهما بدا العقل الفوقى حليما وحكيما، ومهما بدا يقظا متلفتنا، فهو قاصر عن الإحاطة بكلية الوجود، لأنه أغلق بقية قنوات المعرفة بما في ذلك "الحركة" و"الجسد".

العلم المعرفى

العلم المعرفى الأحداث (خاصة في العشرين سنة الاخيرة)، يحاول تصحيح هذا الذى لحق بالوجود البشرى اختزالا واغترابا حتى التخدير، وذلك حين يذكرنا أن العواطف لها برامجها المعرفية، وأن الجسد (بما هو جسد) يشارك في التفكير كما يعلمنا متصوفونا ومتصوفوا العالم - المبدعون لا الذاهلون - أهمية بقية قنوات المعرفة المشاركة مع (وليست البديلة عن) العقل المنطق الأحداث.

النتيجة!!

هكذا يحدد هذا الخلم بصورة تشكيلية شديدة الإيجاز والتكثيف الأمور على الوجه التالى:

(1) إننا قيدنا وجودنا كله، حتى الشلل حين حلّ هذا الرأس المتلفت: العقل الفوقى، محل حركتنا الاستكشافية المعرفية (الإيمانية).

(2) إنه سواء كان التلفت إلى اليمين (أى يمين) أو إلى اليسار (أى يسار)، فالنتيجة واحدة والضياع واحد، والعقاب حتمى.

(3) إن هذا الاغتراب التخديرى المُعقَلَنُ إنما يجرحنا في غور وجودنا إذ يَحْتزِلُنَا حتى تستغيث أعماقنا "مَتى يَنْتَهى هَذَا الْعَذَابُ".

المشاهدون والصوت

لكن من هؤلاء الثلاثة الذين ينظرون إليه باشفاق ويتبادلون النظر في ذهول؟

خطرت ببالي عدة احتمالات لرقم "3" هنا، رفضت إثباتها جميعا خوفا من التعسف، ومع ذلك احترمت أنهم ثلاثة (ليسوا واحدا) احتراما شديدا، دون تعليق، خاصة وأنه سيأتى ذكر الرقم 3 (ثلاثة) في الحلم "4" (ومن يدرى بعد ذلك).

أما هذا الصوت: الذى يتساءل: "من فعل بك ذلك؟ فقد يكون صوت أحد الثلاثة

كما يمكن أن يكون صوت الزمن

أو صوت الشخص المقيد على السارى (على نفسه بصيرة).

ننبه أيضا إلى أن إنزال العقاب ليس مرادفا للشعور بالذنب، العقاب هنا هو أن يعيش الإنسان ناقصا عاجزا برغم حدة انتباهه "في الخلل".

ثم أن الرجل لم يكن مشدودا إلى صليب يتألم فوقه بل كان مقيدا بجبال عقله الأعلى لا أكثر.

هذا العقاب هنا يتمثل في الحرمان من بقيه مناهل المعرفة من ناحية، سواء كانت المعرفة بالجسد أم بالخدس أم بالحركة أم بالوجدان، كما يتمثل في العزلة والعجز والحركة البندولية بين اليمين واليسار.

هامش:

قبل أن أشير إلى خاتمة الحلم، وكيف وصلتني، أنبه إلى قول المشدود (لا المصلوب) "وجهلنا أن الغضب استعداد في كل فرد"... مقارنة بقوله: "جهلنا أن الإنسان لا يمكن أن يخلو من كرامة" وكأنه جعل الجهل "العام" (نحن) بإنكار "العدوان والإبداع"، هو الخلفية التى جعلته فردا، يميز البشر إلى "من عنده كرامة، ومن لا يستحقها".

النهاية:

أرجو أن ينتبه قارئ الحلم لنهايته بدقة مناسبة، ذلك أن الحزن والصمت لم يكونا من مشاعر الحكوم عليه بالمقيد والجمود، حتى لو شعر بالذنب، وعاقب نفسه هكذا، واعترف بجريمة الجهل. نهاية الحلم كانت حزن وصمت الجماعة "الثلاثة" أو الثلاثة زائد الصوت أو الثلاثة زائد الصوت زائد الرجل المقيد، أو نحن جميعا بنى البشر".

حزننا هو لهذا الانقسام الذى بتر الوجود البشرى إلا من عقله الأعلى المتمنق حتى لو اتصف بالحلم والخبرة.

ربما يكون هذا هو الخزن الدافع الأقوى لتحمل غموض وضرورة العلاقة بالآخر فى آن.

أو الخزن الذى هو التفاعل المناسب المصاحب لصدمة تعرية الحقيقة.

أما الصمت بعد هذه الرؤية فقد وصلنى على أنه ذلك الصمت المفعم بوعود اليقين وضرورة مواصلة السعى الممتد كدحاً إليه.

وبعد

1- هل يمكن أن يقول تشكيل حلم بهذا التكتيف والإيجاز، كل ذلك؟
2- وهل لو عرضت هذه القراءة على مبدع الحلم - محفوظ نفسه- يقبلها؟

3- وهل من حقى أن استقبل هذا الحلم/التشكيل المكثف بكل هذا التفصيل الناقد الصعب؟

الاجابة عن السؤال الأول هي: أن نعم،

فإن لم يكن الحلم قد قاله فهذا هو ما حضرنى نقداً.

الاجابة عن السؤال الثانى هي: سواء قبلها المبدع الأول أم لم يقبلها، فهذا الأمر ليس من حقه، فالمبدع يبدع، ثم "يسهر النقاد جراها ويختصم".

الاجابة عن السؤال الثالث هي: متضمنة فى الاجابة عن السؤالين السابقين.

- ذات مرة رحى ألقى محاضرة على شباب مبعوثين تابعين لوزارة التعليم العالى إعداداً لهم لمواجهة ما يسمى "الصدمة الثقافية" عند سفرهم للدراسة فى أوروبا، وكان من بين ما قلته لهم إن هناك ما يمكن أن يتعلموه من ثقافة مختلفة متقدمة، وأيضاً هناك ما يمكن أن يغلقوا وعيهم عن تعلمه، وهم يقاومون أن يصل إليهم من هذه الثقافة الغريبة، وأضفت أن الله سبحانه سيحاسبهم على ما تعلموه وعلى ما رفضوا أن يتعلموه!! (ولم يفهم أغلبهم الجملة الأخيرة)

- لاكوف Lackoff. Philosophy in the flesh